بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

أما بعد فانى عثرت على كتاب فرنساوى ألفه حضرة الكونت هنرى دى كسترى فى الدين الاسلامى ١٨٩٦ ميلادية ولما فرغت من قراءته وجدتنى منساقا الى ترجمته فلم يدركنى ملل ولا نصب حتى أتيت على آخر الكتاب وعدت فراجعت الترجمة فاذا هى تكاد أن تكون حرفا بحرف ثم توجهت الفكرة الى طبع هذه الترجمة ونشرها على الناطقين بالعربية فاعترضنى بعض الاصدقاء بعد أن أريته شذرات من الترجمة وكان من رأيه عدم النشر بالطبع واحتج بان الكتاب وان كان غاية فى التدقيق قاصدا نهاية التحقيق غير انه اضطر الى ذكر ما كان يعتقده أو يتوهمه مسيحيو العصور الخالية فى الدين الاسلامى من الشناعات والسباب وذكر مثل هذه الاشياء وان كان على سبيل الرد عليه ربما اشمأزت له النفوس ووقع من المطلعين عليه موقع الاعتراض وعدم القبول. فهو لا يروق من هذه الجهة جماعة المسلمين وانى لم يكن ليخطر ببالى مثل هذا الخاطر ولم يدر فى خلدى ان يعترض واحد على ذكر هذه الاشياء فى الكتاب وهى لم تذكر من المؤلف وهو مسيحى على انها حقائق بل اوردها على انها اوهام علقت باذهان المسيحيين من تلك الاعصر وترتب عليها ارتسام المسلمين فى مخيلاتهم بالصور الشنعاء واراد المؤلف

محو هاته الصور من مخيلات الاجيال الحاضرة فبرهن واقنع واستدل بالحجة القاطعة على ان تلك موهومات لا نصيب لها من الحقيقة وذكر اسباب ايجادها فى النفوس ورغب الى قومه ان يستبدلوا تلك الصورة المشوهة بصورة الاسلام الحقيقي وما يدعو اليه من خير واصلاح . فلذلك لم اعوّل على رأى ذلك الصديق فى التأخر عن الطبع الا انه اوجب عندى استشارة غيرى وغيره فرأيت امام الصديق المعارض اصدقاء موافقين وغيرهم مستحسنين وغيرهم آمرين وبالطبع غلب رأى الاكثرين رأى الواحد خصوصاً وانه لم يستند الاّ على شيء قال ربما يحصل ونحن نقول ربما لا يحصل وان حصل فهو من عدد قليل وانه لو لم يذكر المؤلف ما ذكره من تلك الموهومات ونبه على فساده وبرهن على خلافه لبقى مركوزاً فى اذهان قومه وبقينا ونبينا عندهم على ما توهمه السابقون منهم اما وقد فعل فلا شبهة فى انه خدم ما استطاع ووجب علينا شكره ما استطعنا ومن تمام شكره اعلام قومنا بكتابه ولكنا لم نرد ان نأخذه بدون اذنه واستمحناه الاذن فيه فتفضل بالاجابة وكان له بذلك كمال الشكر والامتنان

على ان امكان اشمئزاز البعض مما جاء فى هذا الكتاب من الاقوال التى ردها المؤلف ودل على خطائها بالبرهان لا يقابل الفائدة التى نراها من نشره والذى يقصد الفائدة ويتحرى مآخذها لا ينبغى له ان يلتفت الى ما عساه يكون من نفور بعض القراء فانهم لو انصفوا لما نفروا

هذا وان قومى لعلى علم تام من ان مقصد مثلى حسن وغرضى انما هو التنبيه على انه قد وجد من غيرنا من قام للدفاع عنا بذكر الحقائق وسرد

الوقائع التاريخية الصادقة فسفه رأى قومه فينا وابان لهم وجهى الخطاء والصواب ومن الواجب علينا ان نعرف ما قيل عنا وما دفع به المدافعون وليتهم كانوا منا وان نتعرف صاحبي الرأيين فنعرف المخطئ ولا ندع له بابا آخر للطعن علينا ونعرف لذى الصنيعة صنعه الجميل فنزيده اعتقاداً باستحقاقنا لما صنع . وفينا كتاب الله اعظم مرشد لهذا السبيل فقد حكى بعض المذاهب بنصها وفصها ورد عليها بغاية الايضاح والتبيين وعندنا كتب سادتنا الاولين في علوم الاصول والكلام وكلها تحكى المذاهب الباطلة مفصلة وترد عليها . ومن علمائنا السابقين من يوجب حكاية المذهب الفاسد ليتمكن المطلع من الرد عليه بالدليل فاذا كان هذا هو الحال فى المذاهب التى قرّرها اصحابها ويخشى حقيقة من انتشارها لانها مبرهنة بنوع من البرهان وان كان فاسد المقدمات فما الظن بما حكاه الغير عنا على غير وجهه اما غلطاً أو قصداً لغرض مخصوص . أظن انه لايختلف اثنان فى انه من ألزم الواجبات حكاية ماحكوه واشهار ماقالوه واذا كان الغرض فى القسم الاول هو الرد عليه فليكن الغرض من هذا القسم معرفة مارمينا به وهذا بلا ريب ينتج الرسوخ فى العقيدة عندنا وينتج أيضا اقتناع الواهمين بضد ماتوهموه وهذه النتيجة تقصد لكبار العقلاء ويحبها أفاضل العلماء

وفوق هذا فانا بذكرنا ما قالوه قدحا علينا أو طعناً في ديننا أو صاحبه عليه الصلاة والسلام نرجع الى أنفسنا ونبحث عما اذا كان لاقوالهم من أعمالنا منتزع ام لا فان كان لهم منها منتزع علمنا كما هو الصواب انه ليس من أصل الدين فلا نلبث ان نتباعد عنه ونرجع لأصل الدين القويم ولا نحيد عن

العمل به فى أى حال من الاحوال وان لم يكن لهم من أعمالنا منتزع ادركنا ان لهم غرضاً مخصوصاً وعملنا على مايزيل هـذا الوهم من أنفسهم أو يدفع بهم الى تغيير غرضهم فينا وهم لاشك مجتنبوه اذا رأوا منا ذلك المنهج المعتدل والسير على الصراط المستقيم فان مقاومة الوهم بمثله لا تفيد

ثم انه لاينكر ان في همتنا قصوراً عن البحث فيما يعتقده الناس فينا فاذا قيض الله لنا من بحث بدا لنا ورد الشبه عنا فما اجدرنا بقبول عمله واظهار الرضا به وما أولانا بنشر تحقيقاته بيننا حتى تعمّ فائدتها جميعنا وربما جرّنا هذا الى الاشتغال بانفسنا فان ماحك جسمك مثل ظفرك ولا أحسن من ان يتولى الانسان مصالحه بيده مع حفظه حق مرشديه وعدم انكار صنيعهم الجميل

ولقد رأيت للمؤلف من التثبت فى النقل والاعتدال فى الحكم واستعمال الذوق فى الرد واعمال العقل فى النقد وطريقه والاستشهاد بالوقائع التاريخية مافاق به سواه من مؤلفى زمانه فبان لى انه غرضه الحقيقة أيّاً كانت ولا أواخذه فى بعض مواضع كتابه مما لم يطابق نقله الاحكام الشرعية اذ ربما اعتمد فيه على قول بعض النقلة وربما كان نقله صحيحا على بعض المذاهب التى لم أقف أنا عليها ولذا لم ألاحظ عليه فى الهامش ملاحظات مستقلة وفضلا عن هذا فانى رأيت ان تكون الترجمة نقلا للاصل برمته ليعلم ماذا قصد وماذا كتب ويكفينا منه انه طالب للحق وان جاء فى بعض آرائه ما عساه يحمل على الخطأ مثل الذى له فى التأويل والحكاية عن اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم واعماله واعتقاداته. على انه لايفوت قراء الترجمة ان الكتاب كتب

لينشر بين قوم المؤلف وكان لا بد له من ملاحظة افكار المكتوب اليهم وأحوالهم وربما اضطر فى ذلك الى ابراز بعض الحقائق الثابتة عنده فى صورة الاحتمال والامكان كما يشير اليه كتابه الىّ ايذانا بنشر ترجمته كذلك لم أشأ ان أكون معه من المجادلين لئلا تضيع الحقيقة او ينجر الامر الى الانكار على صاحب مقصد حميد

هذا وانى تارك هنا ما نحن عليه من وقوف حركة النظر ومن تعطيل قوة البحث فى العلوم ومن ترك مادعينا للعمل به من قواعد الدين ومن الابتداع فيه وعدم العمل بزواجره واجتناب نواهيه ومن اغفال ما حثنا عليه من العلوم النافعة والتربية الناجعة فان ذلك وان كان له مساس بما نحن بصدده الا انه يقتضى الشرح الطويل مما لا يحتمله هذا المقام ولكنا نقول قولة مجملة بان الاسلام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يرضى منا بالغفلة عن المنافع والمصالح ويطالبنا بدفع المفسدة ويحثنا على مكارم الاخلاق ويبين لنا ان كل بدعة ضلالة وان كل ضلالة فى النار وان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وان العلم يطلب ولو في الصين وان لا شيء من العلم بضار ولا شيء من الجهل بمفيد وان من احدث فى الدين ما ليس منه فهو رد عليه . هـذه هى تعاليم الاسلام الا ان الاعصر الحاضرة قد خرجت بالدين الى ماليس منه فعطلت شعائره الحقيقية ودخلت فيه البدع وتغلبت المعتقدات الفاسدة على القواعد الصحيحة وتمسك الناس بالبدع وتركوا الفروض والواجبات وكاد القرآن يتلى مع الآلات المطربة والصلاة تؤدى فى الحانات واندثر العلم وانحلت العزائم وقعدنا عن تحصيل القليل من

ضروریاتنا وتأخرت التربية ففسدت الاخلاق وتناكرت النفوس فاختلفت المساعي وتعاكست المقاصد فتفرقت المنافع وانحل عقد نظام المسلمين فاصبحوا اشتاتاً يمقتهم الناس ويرمونهم بالانحطاط ويعيرونهم بما تنزه عنه شرعهم ولكنهم ألفوه وبالغوا فى التمسك به حتى تبدلت الاحوال وصار كما قال صاحب المنار (الجبر توحيدا وانكار الاسباب ايمانا وترك الاعمال المفيدة توكلا ومعرفة الحقائق كفرا والحاداً واتذاً المخالف فى المذهب دينا والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحاً واختبال العقل وسفاهة الرأى ولاية وعرفاناً والذلة والمهانة تواضعاً والخضوع للذل والاستبسال للضيم رضى وتسليما والتقليد الاعمى لكل متقدم علما وايقانا)

نعم كان هذا كله واكثر منه مما نمسك القلم عنه وانما سقنا ما ذكرنا معذرة لمن يفهم من الاجانب ان سوء حالنا آت من جهة ديننا وان رضوخنا للجهالة احدى دعائمه كما يتبين من عرض افكارهم فى هذا الكتاب والدين برأ منه . وكيف نطلب منهم حسن الاعتقاد فى الاسلام وهم يرون المسلمين يأتون من الاعمال مالا ينطبق على عقل ولم يقل به شرع اللهم الا اذا كان كما فهموه منا . انهم فى الحقيقة معذورون اذا نسبوا اعمالنا هذه الى الدين فانهم لا يفرقون بين ما هو منه وما هو بعيد عنه وليس لهم الا ان يعتقدوا بان عملنا مأمور به لا منهى عنه

الى هنا نمسك القلم ونترك القول للمؤلف سائلين القارىء ان يستصحب معه في قراءة هذه الترجمة ماقدمناه من الملاحظات وبالله الاستعانة وعليه الاتكال فى صلاح الاعمال

مقدمة المؤلف

كنت ذات يوم أجوب جوف الصحارى فى ولاية حوران بين زرقوم وسجير وخلفي ثلاثون فارساً كريماً من أولاد يعقوب يمشون جماعات جماعات لان حدة الخيل كانت تمنع من انتظامها وتجعل بعضها اذا مسه التالى يصهل صهيل الغيظ ثم يلفت وجهه الى الوراء ويضرب بارجله فى الهواء وعما قليل تسكن ثورته وتعود الجياد الى خطاها مطمئنة يسير أمام الكل حاد على فرس عظيمة بيضاء لا يهدأ لمرآها ساكن الجياد وهو يترنم بما ينعش الجمع من كلام أغلبه مديح فى كاتب هذه السطور فكنت فيهم كسلطان يتسابق كل واحد من حاشيته الى ارضائه باستعمال ما حفظ الشرق من اسرار الانحطاط النفسى فى مثل تلك المعاملات وكنت اصغى الى اشعارهم ساعات متتابعة بغير ملل وقد وعيت البعض منها وكلها أراجيز محبوكة الاطراف غير تامة المعنى بذاتها فلا تميز بين المادح والممدوح والمخاطب والمتكلم بحيث يصعب علينا معشر الغربيين ادراك مراميها

وكنت ابلغ الخامسة والعشرين من العمر والفصل فصل الشتاء وبومئذ يوم جميل تنشط الابدان حرارته ويبلغ ضوءه حد البهاء وروائحه تنعش السالكين وتجعل المستنشق شاعراً بتمام الحياة يخالجنى مع ذلك احساس آخر هو شغفى بتلك الممدوحة التى كان اسمها يروح ويغدو فى أقوال

أولئك الشجعان . وبينما نحن سائرون على هذه الحالة اذ سكت الشاعر والتفت قائلا بصوت خشن سيدى الآن وقت العصر . هنالك ترجلت الفرسان واصطفوا لصلاة العصر مع الجماعة وصلاة الجماعة مفضلة عند الله فى اعتقاد المسلمين كما هى كذلك عند المسيحيين أما انا فقد ابتعدت عنهم وكنت أود أن لو انشقت الارض فابتلعتنى وجعلت أشاهد البراس العريضة تنثنى وتنفرج بحركات المصلين واسمعهم يكررون بصوت مرتفع الله اكبر الله اكبر فكان هذا الاسم الالهى يأخذ من ذهنى مأخذاً لم يوجده فيه درس الموحدين ومطالعة كتب المتكلمين وكنت أشعر بحرج لست أجد لفظاً يعبر عنه سببه الحيا والانفعال أحس بان أولئك الفرسان الذين كانوا يتدانون أمامى قبل هذه اللحظة يشعرون فى صلاتهم بانهم أرفع منى مقاماً وأعز نفساً ولو انى اطعت نفسى لصحت فيهم (انا أيضاً اعتقد بالله وأعرف الصلاة وكيف أعبد) فما اجمل منظر أولئك القوم فى نظامهم لصلاتهم بملابسهم وجيادهم بجانبهم ارسانها على الارض وهى هادئة كانها خاشعة للصلاة . تلك هى الخيل التى كان يحبها النبى (صلى الله عليه وسلم) حباً ذهب به الى انه كان يمسح خياشيمها بطرف أزاره عملا بوصية جبريل عليه السلام وكنت ارى نفسى وحيداً فى عرض هذه الصحراء على ما انا به من اللباس العسكرى الضيق الذى يبرم فيه الجسم الانسانى بغير احتشام تلوح على سمات عدم الايمان فى مكان هو مسقط رأس الديانات كأنى من الحجر أو من الكلاب امام أولئك القوم الذين يكررون الى ربهم صلوات خاشعة تصدر عن قلوب ملئت صدقا وإيمانا . وبينما أنا كذلك اذ جال بخاطرى ماورد فى التوراة من أن الله

يسكن خيمة سام ويكثر من اولاد يافث . وقد كان الفريقان مجتمعين في ذلك المكان أولئك المصلون الذين هم من ولد سام معجبون بدينهم وعبادة ربهم ورب اباءهم الله الذى دخل خيمة ابراهيم وأنا ابن يافث الذى يمتد ذكره بالحرب والفتوح ولما انتهى بنا الطريق ورجعت الى مكان راحتى جعلت اكتب ماعلق بذهنى من الافكار فاحسست انى منجذب بحلاوة الاسلام كأنها اول مرة شاهدت فى الصحراء قوما يعبدون خالق الاكوان وذكرت خيام النصارى حيث لا متعبد فيها غير النساء وأخذنى الغضب من كفر ابناء المغرب وقلة ايمانهم

كنت فى سن يستسهل العقل فيه حل المشكلات ويأخذ الاشياء من ظواهرها ويحل الخيال فيه محل النقد والتنقيب ويعتقد المرء فى الامور بغير قيد وهو سن لو انصف اهلوه لما كتبوا وألفوا وكنت ارى ان جمال الدين أصدق شاهد على انه الدين الحق وصرت أكتب فى الاسلام غير شاعر بما يخطه القلم طوع الفؤاد .

ولو أنى اتبعت مجرد الظواهر وقضيت على الامور بغير تأمل وتدقيق لجاء كتابى مذموما ورمانى المستشرقون بالخفة والطيش كما يرمون بحق بعض مؤلفى الجزائر من الاوروباويين . ذلك ان المشتغلين بالاسلام فى هذه الايام فريقان المستشرقون الذين هم من افاضل العلماء ومستعربو الجزائر من الافرنج ايضا ومما لاشبهة فيه ان القسم الاول قد افاد العلم اكثر من القسم الثانى فان أعمالهم انتجت كثيراً من العناصر والمواد التى يسهل بها اليوم وضع تاريخ الاسلام لان ذلك التاريخ لايزال مع ماتقدم فى عالم

الغيب وبعدهم يأتى مستعربو الجزائر على نسبة الفرق بين غزارة المادة فى العلم وسلامة النظر فى الموجودات وهم يعيشون مع المسلمين ويفقهون غور افكارهم ويعلمون حقيقة معيشتهم وكنه دياناتهم معرفة لاتحصل لاحد فى غير تلك البلاد وبهذا يرون ان لهم الحق فى ان يكتبوا عن الاسلام كالمستشرقين نعم انهم لم يقفوا على جميع ماألفه المسلمون فى الحكمة وعلم الكلام ولكنى لأرى ذلك نقصاً كبيرا اذ معرفة حقيقة الاسلام فى هذا العصر لاتحتاج الى سعة اطلاع دينى على ان مطالعة جميع الكتب التى وضعت فى مبدأ ظهور هذا الدين انما تجب على المؤرخ أكثر من غيره لان علم الكلام وحب الخوض فيه قد اندثر منذ القرن الثانى عشر حيث أصبح الدين الاسلامى قويا متينا لاتؤثر فيه مناقشة الباحثين وتخاصم المنتقدين كما أودت باصول الديانات الاخرى فمن ذلك الحين صار كل مسلم من عالم وجاهل ومن أمير وحقير مؤمنا ايمانا لااحتياج لتحكيم العقل فى تحصيله بل هو ايمان وجدانى بسيط قوى فى النفس متمكن من القلوب وذلك لايشاهد فى الامم المسيحية الا عند الفحامين

ومما اوجب الباحثون معرفته على كل مشتغل بالاسلام علم الاسماء المقدسة وهو علم دقيق لا يعرفه المستعربون كثيراً ولم يأت بالفائدة التى كانوا يقصدونها منه ومع ذلك فان العجب يأخذ منهم كل مأخذ اذا قرأوا ترجمة بسم الله الرحمن الرحيم التى تسبق كل سورة من سور القرآن اذ يظهر من تلك الترجمة ان واضعها اراد الوصول الى اصل معنى اللفظ فى الوضع ونسى ان ذلك البحث ربما جر الى فقد المعنى الذى يحضر فى الذهن

لسماعه ومن الواضح ان سعة العلم وغزارة المادة اذا بنيت على الفرض والتخمين لايحتج بها امام ما اتفق الشعور العام عليه قال المستشرقون ان رحمن اسم وضعته الديانة الوثنية المسيحية لاله الشفقة وهو جائز غير ان هذا اللفظ لايدل عند المسلمين من يوم دخوله فى لغة الاسلام الا على صفة من صفات الله الذى يعبدونه ولم يوجد واحد من بينهم ذهب الا انه اسم من اسماء الالوهية المعروفة قبل الاسلام فلست أرى حينئذ ان المستشرقين مع احترامى لما يقولون قد اكتشفوا على امر يقدح فى صدق القرآن وانه يلزم لذلك نزع معنى الرفق والحنان من لفظة الرحمن لانه معنى يطابق فكر جميع المسلمين فى كل زمان ومكان

ولقد رأيت من الواجب أن أبين الصفات التى تخولنى حق الكتابة عن الاسلام قبل ان انشر كتابى هذا أنا عاشرت العرب أزماناً طوالا واشتغلت كثيراً بمعرفة حقيقة طباع الشرقيين ومذهبى مذهب مستعربى الجزائر ولذلك أسأل المستشرقين ذوى الاعتبار عفواً ولينا واطلب منهم قبل كل شئ أن لايجمعوا بينى وبين اولئك الذين يميلون الى العرب فيكتبون عن الاسلام ماتلقفوه اثناء سياحة قصيرة فجاء قولهم قولا شعرياً حتى ان موسيو (لوازون) لم ينج من هذه السقطة بل طاش قلمه وجذبته التخيلات فكان ممن يرى كل شئ فى الشرق جميلا وجاء رأيه فى الاسلام رأى قوال لا رأى باحث حكيم وعليه فلست أقصد بكتابى هذا أن امجد الاسلام ولكنى لما رأيت انه صار من المسائل الكبرى التى اشتغلت بها أذهان الباحثين فى العصر الحاضر وأسست من أجله مجلة علمية فى باريس

نال بها المسلمون نجاحاً أدى الى ان المسيحيين ومنهم أولاد الصليبيين يساعدونهم بالمال على اقامة مسجد يعبدون الله فيه انتهزت فرصة هـذا الميل وأردت التنبيه الى بعض اغلاط علقت بالافكار عندنا من حيث النبي العربي ودينه الاسلامي وهو عمل شاق وموقف حرج اذ من المعلوم كما قيل انه لا يرسخ في الاعتقاد اكثر من خطأ الاعتقاد كذلك ارى انه لا يكفي لامة مسيحية متمدنة ان تحترم دين المسلمين من رعاياها بل يجب عليها ان تسعى الى معرفة ذلك الدين كما ينبغي فنحن نضحك اشفاقاً من سماع الاقاصيص التي نقرأها عن بغض المسلمين للمسيحيين ونقول أولئك قوم جهلة متعصبون وانهم في بغضهم لنا مخطئون الا ان المسيحيين هم كذلك في بغضهم للمسلمين لا يعدلون واشد الاوهام رسوخاً عندنا بالنظر الى الديانة الاسلامية ما اختص منها بشخص النبي ولذلك قصدت ان يكون بحثي اولاً في تحقيق شخصيته وتقرير حقيقته الادبية على اجد في هذا البحث دليلاً جديداً على صدقه وامانته المتفق تقريباً عليها بين جميع مؤرخي الديانات واكبر المتشيعين للدين المسيحي